تاريخ الاجتماع الطبيعي

لجناب الدكتور شبلي شميل

لقد تقدم القول في بدء مقالة عنوانها "الاجتماع البشري والعمران"[1] ان من الناس من يذهب الى ان الاجتماع نتيجة الفكرة وحدها وخصّ بالانسان ومنهم من يذهب الى انه طبيعي فيه واطلقه على الحيوان . اما الاول فقول اكثر الحكماء المتقدمين واما الثاني فقول اكثر الحكماء والطبيعيين المتأخرين وسنرى ما نبسطه لك في ما يأتي اي القولين أحق وأولى

ان البحث في العمران لم يكن في القديم الاّ من همّ بعض الحكماء ولم يبنَ على قواعد راهنة الاّ في هذا العصر وقريباً من هذا العهد وعما قليل سيصير درس سنيّ من اول الضروريات للانسان لان ارتقاء الانسان في الفدن له نتيجتان لازمتان وقد طالما عدّهما الناس متناقضتين وهما نموّ الحياة الشخصية ونمو الحياة الاجتماعية معاً . فقد كان الاعتقاد سابقاً ان ما يبذله الفرد في مصلحة الجمهور انما يبذله من مصلحة نفسه وبالعكس . ولم يكن يظن ان بين المصلحتين ارتباطاً شديداً ولذلك كانت شرائع البشر في القديم اشدّ انحرافاً لجانب الاستبداد واقلّ احتراماً لجانب العدل في التعاون والاشتراك في المنفعة . ولم تجلِ هذه الحقيقة كما ينبغي الاّ في هذا العصر اي بعد ان رسخت معارف البشر في العلوم الطبيعية وانجلى لهم بها ارتباط سنّة هذا الكون فرأوا اتفاقاً حيث كان سوام يرى تناقضاً وارتباطاً حيث كان يرى انفصالاً . فرأوا مصلحة الفرد مرتبطة بمصلحة الجمهور وبالعكس ارتباطاً شديداً حيث لا تتم حياة الواحد الاّ بحياة الآخر لانهم رأوا السنن الفاعلة في الاجتماع نفس السنن الفاعلة في الافراد . ولذلك قالوا ان الاجتماع لا تتمّ معرفة طبيعته وسننه الاّ بمعرفة طبيعة الافراد وسننها كما ان الجسم الحي لا تتم معرفة سننه الاّ بمعرفة سنن الكريّات الحيّة التي يتركب منها . لان كل صفات الاجتماع في الخلق والاخلاق متصلة اليوم من الافراد التي تؤلفه وكل صفات الافراد كذلك متوارثة فيهم ومنتقلة اليهم من الاجتماع فاذا استفرينا هذه السنن في تاريخ نشوءها الى اصلها الطبيعي خالين من الغرض والتشيّع انتقل بنا البحث في الاجتماع من دائرة الشريعة والسياسة الى دائرة علم الحياة ودخلنا في قسم من العلم الاجتماعي يمكن تسميته تاريخ الاجتماعات الطبيعي لان البحث حينئذٍ لا ينحصر على الحكم الوازع

(١) المقتطف * قد ادرجت وجهه ٣٢٥ فما بعده من السنة التاسعة فراجعها هناك

والاجتماعات السياسية بل يعم الاجتماعات البشرية كافة حتى الاجتماعات الحيوانية ايضاً . ولا يخفى ما يترتب على معرفة ذلك من الفوائد للعمران لان الفائدة انما تحصل للعمران اذا جرى الانسان فيه على سننٍ لا على ضدها والبحث فيه على هذه الصورة واجب ليعلم اي السياسيين اولى به أالسياسة الحر ام السياسة الاستبدادية وذلك اوّل ما يعوّل عليه اصحاب العقول الحرة لتأييد آرائهم لان اصدق الادلة التي يجب الاعتماد عليها هي من العلوم الطبيعية . ثم اذا استقرينا هذه السنن الى اصلها ايضاً انتقل البحث بنا ضرورةً الى العلوم الطبيعية لان السنن الفاعلة في الكريات الحية هي نفس السنن الفاعلة في جواهرها الفردة ولذلك كان البحث في علم الاجتماع — تاج العلوم البشرية — من اعظم المباحث لمعرفة سرّ الحياة الكلية المستولية على عامة سنن الكون

جسم الاجتماع

وتشبيه العمران بجسم حي قديم جداً فالفلاسفة المتقدمون كافلاطون وارسطو شبهوهُ بحيوان كثير الرووس وفلاسفة القرن الثامن عشر كشكسبير وروسو وضعوا له اعضاء ايضاً ولكن هذه المشابهة مجازية عند اكثر المتقدمين قياسية عند اكثر فلاسفة القرن الثامن عشر وتعتبر مشابهة بالمطابقة اليوم. فان سبنسر الانكليزي لا يفرق بين سنن الاجتماع وسنن الحياة وشغل الالماني يصف الجسم الاجتماعي كأنهُ يصف حيواناً وصفاً طبيعياً فيصف الخليّة الاجتماعية اي العائلة والانسجة الاجتماعية واعضاء الاجتماع وروح الاجتماع وجيجري يجعل الاجتماعات بين الاحياء في كتاب له في الحيوان ويصفها وصفاً طبيعياً وغيرهم ممّن حذا حذوهم في هذا العصر كثير . فلنبحث معهم لنرى اولاً هل يصحّ تشبيه العمران بجسم حي وهل السنن الفاعلة في الجسم الحي كالحيوان هي نفس السنن الفاعلة في العمران

فالجسم الحي مركب من اعضاء مختلفة ولكل عضوٍ من هذه الاعضاء عمل خاص ومشترك معاً اعني ان العضو الواحد يعمل غير ما يعمل الآخر ويعمل له في آنٍ واحد فان المعدة مثلاً تعمل غير ما يعمل القلب والقلب غير ما يعمل الدماغ وكلٌّ من الدماغ والقلب والمعدة لازم للآخر. وكذلك العمران فانهُ مركب ايضاً من اعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة فالزارع يعمل غير ما يعمل الصانع والصانع غير ما يعمل الوازع وكلٌّ من الوازع والصانع والزارع لازم للآخر فهو من هذا القبيل كالحي تماماً . ولا تنحصر هذه المشابهة على الصفات الخاصة فقط بل تتناول العامة ايضاً فقد قال سبنسر وقوله حق ان النوى الكبرى في حيوان تام التركيب ثلاث وهي الغاذية وافعالها تهيئة الغذاء وآلاتها المعدة والكبد وما يتلوها والمدبرة وافعالها تحصيل الغذاء وآلاتها الدماغ والاعصاب وما يتلوها والموزعة وافعالها توزيع الغذاء وآلاتها القلب والشرايين وما يتلوها .

وان القوى الكبرى في العمران ثلاث كذلك وهي الصناعة وافعالها الاعتمال للمعاش والحكومة وافعالها تحصيل اسباب هذا المعاش والتجارة وافعالها توزيع هذا المعاش

ولقائل يقول اذا كان هذا التركيب شرطًا لازمًا للحياة فهل يلزم منه ان تكون كل آلة مركبة حيّة وهل الساعة حيّة فانها مركبة من آلات او اعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة كذلك. فعلى ذلك يجب ان الفرق بين الآلات الطبيعية الحية والصناعية غير الحية هو ان الاولى ذات اعضاء حتى في اهم اجزائها تعمل لحفظ الكل نظيرها بخلاف الثانية فان اعضاءها نفسها غير مركبة من اعضاء مختلفة نظير تلك ولا تفعل فيها نظير فعلها اي انها لا تعمل عملها من نفسها لحفظ الكل بل بالضد من ذلك فهي تميل دائمًا الى ابطال هذا العمل . وهذا ما يتاز به الحي عن غير الحي ولذلك لم تكن الساعة حيّة واما العمران فحيّ لان كل عضو منه مركب من اعضاء أخرى تعمل نظيرهُ لحفظ الكل كما في الجسم الحي فكل حيوان مركب من حيوانات أخر اقل منه في التركيب. فان الكريّات الحية التي يتألف من مجموعها جسم كل حي انما هي اشخاص حية ذات حياة خاصة بها ولها اميالها وشهواتها وامراضها كأنها افراد البشر الذين يتألف من مجموعهم جسم العمران. والحيوانات الدنيا كالمفصّلة والديدان يمكن تقسيمها الى اجزاء تبقى حيّة بعد التقسيم كأنها مملكة تنقسم بخلاف الآلات الصناعية. وربَّ معترض يقول ان ذلك لا يمكن في الحيوانات العليا فنجيب ان في امكان بعض اجزاء هذه الحيوانات ان يبقى حيًّا بعد موت الحيوان كالاظفار والشعر ويمكن فصلها كذلك من حيوان والصاقها بحيوان آخر حيث تبقى حيّة [1] فهي اشبه شيء بأمّة اضيفت الى أخرى واذا كانت الحيوانات العليا لا تستطيع ان تبقى حية بعد تقطيعها الى حدّ معلوم فذلك لان اختصاص الاعمال فيها اتمّ منه في الحيوانات السافلة فهي اشبه شيء باجتماعات بعض انواع الحيوان التامة الانتظام كالنمل فان المتعوّد منها على تحصيل قوته بواسطة غيره يموت اذا فصل عن البعض الآخر

وهذا التعاون بين اعضاء الاجسام الحيّة بحيث ان الواحد يعمل لنفسه وللكل في آن واحد جرّ معهُ قضيتين فاسدتين في حقيقة الحياة احداها تتعلق بالسبب والاخرى بالغاية. اما الاولى فيفرض فيها ان كلّ جزء من الاجزاء الحيّة له فوق ميله الخاص قوة خاصة تتولى امرهُ بالنسبة

(١) من غريب ما يزعم بعضهم ان الارجل المنزوعة من حيوان والملصقة بحيوان آخر لا تزال تخصّ المنزوعة منه وانها تحيا بموته الحيوية. قال والدليل على ذلك هو ان لون الشعر لا يتغير كأنه لا يمكن تعليل ذلك بكون الشعر نفسه وباستقلال الاعضاء التي تغذيه فيه مع استمدادها الغذاء والحياة من الحيوان الثاني ويترتب على زعمه هذا ان الحيوان يمكن اقتسامه بدون انقسام حياته وهو من اغرب الاسرار

الى نفسهِ والى غيرهِ وهي القوة الحيوية التي عضدها رجال من اهل المكانة في العلم . والحق انهُ لا يفهم بماذا تختلف هذه القوة عن سواها من القوى التي توهموا وجودها قديمًا ككراهة الطبيعة للفراغ والقوة النابضة للشرايين وغيرها من القوى التي عدّها القدماء اثبات مجردة مستقلة حتى ابان العلم فساد ذلك اذ لم يرَ فيها سوى اسباب طبيعية متصلة ومرتبطة بعضها ببعض . واما الثانية وهي الغاية فيفرض فيها على ما يظهر ان كل جزء من الحي موفّق للكل بقوة عاقلة كائنة فيهِ او خارجة عنهُ . فان كان هذا هو المفروض حقيقة فالعلم اليوم في غنًى عنهُ لامكان تعليل المطلوب باوفى بيان على وجه لا يقتضي هذا الفرض فان هذا التعاون الذي فيهِ يخدم الواحد الكل والكل الواحد انما هو نتيجة تناعل متبادل بين الاعضاء فالعضو الواحد لا يهتمّ بغيرهِ ولا يشتغل الاّ لخير نفسهِ وانما خيرهُ مرتبط بخير غيرهِ . والامر بالحقيقة كذلك فانهُ لا شيء اطمع من الكريات الحية التي تؤلف الجسم الحي اذ كل كريّة تطلب كل شيء لنفسها وتجذبهُ اليها والحياة ليست سوى اكتناه هذه المطامع . فالناظر الى النتيجة لا جرم يظن في اول الامر ان كل كريّة انما اشتغلت لسواها وهي في الواقع لم تشتغل الاّ لنفسها بدون غاية سوى حفظ ذاتها وهذا كائن ضرورة بحفظ سواها ومرتبط بهِ ارتباطًا ميكانيكيًا . ولذلك قال بعض الباحثين في العمران انهُ ينبغي لكل واحد من البشر ان يشتغل لخير نفسهِ فيشتغل لخير الكل . ولا يخفى ان تنازع البقاء كما هو مذهب داروين يجعل بين هذه الكريات التي هي بالحقيقة حيوانات صغيرة تنازعًا شديدًا تكون نتيجتهُ ملاشاة البعض العديم المناسبة وحفظ البعض الآخر المناسب لحياة الكل بالانتخاب الطبيعي . فتأخذ الكريات بذلك صورًا معلومة وتؤلف حيوانًا معلومًا وهكذا على مرّ العصور المتطاولة تكون الانواع الثابتة الى حدّ محدود والمتغيرة في الاجيال البعيدة فان الطبيعة ليس فيها شيء ثابت ثبوتًا مطلقًا بل كل شيء فيها في حال المصير فالتعاون بين اعضاء الاحياء ليس قصدًا وانما هو نتيجة لازمة فقط

واذا تقرّر ذلك فلننتقل من اجتماعات الكريات الحية الصغيرة التي تؤلف الاحياء الكبيرة الى اجتماعات البشر التي تؤلف الامم فاننا نجد في الاجتماع البشري نفس ما في كل حي اعني الميل الباطن لحفظ الذات والتفاعل الظاهر مع الاشياء التي من خارج بما في ذلك من تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي واذا كان ذلك حياة فالعمران حي ايضًا كالنبات والحيوان بل حياتهُ اتم من حياتهما لانهُ اذا كان هناك قصد فانما هو في الاجتماع البشري لان هذا الاجتماع يدرك حاجتهُ ويقصد غايتهُ الخاصة والعامة معًا وهذا الفرق نسبيٌّ ايضًا كارتقاء سلسلة الاحياء بعضها عن بعض وقد اعترض بعضهم على هذه المشابهة بين جسم الحي وجسم العمران فقال ان اعضاء الحي

متصلة واعضاء العمران منفصلة وهو اعتراض ساقط وقول منقوض لان اجزاء العمران غير منفصلة حقيقة والّا لزم القول بالفراغ كما ان اجزاء الحي غير متصلة كذلك واذا كان بينهما فرق في ذلك فانما هو في بعد المسافات بين الاجزاء فقط كالفرق بين جسميهما فان جسم العمران اكبر من جسم الحيوان وهو فرق نسبي لا يصح ان يكون اعتراضاً . واعترض غيرهُ اعتراضاً يتعلق بالزمان فقال ان الحي يولد ويحيا ويموت بعد ان يمرّ باسنان معلومة والعمران وان كان يولد ويحيا كذلك الّا انهُ في زعمهِ لا يموت وهو غير صحيح ايضاً لان الامم والشعوب التي تتولد في العمران تهرم وتموت ايضاً والفرق بين العمران والحي في طول العمر فقط والعمران لم يتجاوز بعد سن الصبا وربما كان المستقبل يهدد العمران كلهُ بالهرم والموت ككل حي سواءٌ إما لتغلب نوع آخر من الانواع الحيّة عليهِ وإما لتغير احوال ارضهِ التي هي مهد حيانهِ فيعرض لها من التواسر الطبيعية ما يفرّق اتصالها ويبدّد اجزاءها ويلاشي نظامها فيموت الاجتماع البشري ضرورة . على ان الارض ككل شيء سواها لا تتلاشى حقيقة وانما تتقلب احوالها وتتبدل اشكالها وتتفرّق اجزاؤها في محيط هذا الكون وتتحوّل من حال الى حال وتبعث من صورة الى صورة متحركة على الدوام ومستقلة في الزمان والمكان وهذا هو بالحقيقة الموت

وما الموت الّا عودةٌ بعد بدأةٍ ... وما البعثُ الّا بدأةٌ بعد عودةِ
ولكنهُ موتٌ لنا عن وجودنا ... وبعثٌ لأشتاتٍ لنا لا لجملةِ
سكونٌ لمن قد مات منّا وراحةٌ ... وان لم يكن فيهِ لهُ من سكينةِ

فترى مما تقدم ان المشابهة في الخلق بين العمران والحي تامة من كل الوجوه وفي ما يأتي سنبحث عن هذه المشابهة بينهما في الاخلاق

الوان الحيوانات وعلاقتها باحوال البدن

لجناب نعمة افندي طحان

ان الناس يميلون الى معرفة الاسباب التي تحدث عنها الالوان في الانسان وسائر الحيوان ويسألون كثيرًا عن سبب اختلاف اللون شدةً في الانسان الواحد والحيوان الواحد من وقت الى آخر فرأيت ان اخص هذه المقالة املاً بأن تقع لدى قرّاء المقتطف الكرام موقع القبول فاقول

ان الوان الحيوانات تتأتى عن مصادر شتى فقد تكون الانسجة نفسها مؤلفة من جسم ملوّن